

الحجازيات

الشريف الرضي رحمه الله

ميعاد دمع العيين

ألا يا ليالي الخيف! هل يزجع الهوى
فيا دين قلبي من ثلاثِ على مني
ورامين وهنأ بالجمار، وإنما
رَمُوا لا يُبالون الحسنى، وتروّ حوا
وقالوا: غداً ميعادنا النفر عن مني،
ويا بُؤس للقرّب الذي لا ندوقه
فيا صاحبي! إن تُعطِ صبراً، فإنني
وإن كنت لم تدر البكسا قبل هذه،

إليكن لي؟ لا جازكن ندى القَطْرِ
مضين ولم يُيقين غير جوى الذكرِ
رَمُوا بين أحشاء المحبين بالجمرِ
خليين، والرامي يُصيب، ولا يدري
ومسا سرتني أن اللقاة مع النفرِ
سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهرِ
نزعَت يدي اليوم من طاعة الصبرِ
فميعاد دمع العيين مُنقلب السفرِ

أحبك

أُحِبُّكَ مَا أَقَامَ مِنِّي وَجَمَعُ،
 وَمَا رَفَعَ الْحَجَّاجِ إِلَى الْمُصَلَّى،
 وَمَا نَحَرُوا بِخَيْفِ مِنِّي، وَكَبَّوْا
 نَظْرَتُكَ نَظْرَةً بِالْخَيْفِ كَانَتْ
 وَلَمْ يَكْ غَيْرُ مَوْفِنَا فَطَارَتْ
 فَوَاهَا كَيْفَ تَجْمَعُنَا اللَّيَالِي؛
 فَأُقْسِمُ بِالْوُقُوفِ عَلَى الْأَلِ،
 وَأُرْكَانِ الْعَتِيقِ وَبَانِيهَا،
 لِأَنَّ النَّفْسَ خَالِصَةً، فَإِنْ لَمْ
 نَظَرْتُ بِبَطْنِ مَكَّةَ أُمَّ خِشْفٍ
 وَأَعَجَبَنِي مَلَايِحُ مِنْكَ فِيهَا،
 فَلَوْلَا أَنِّي رَجُلٌ حَرَامٌ،
 وَمَا أُرْسَى بِمَكَّةَ أُخْشِبَاهَا (١)
 يَجْرُونَ الْمَطِيَّ عَلَى وَجَاهَا (٢)
 عَلَى الْأَذْقَانِ مُشْعَرَةً ذُرَاهَا
 جَلَاءَ الْعَيْنِ مِنِّي بَلْ قَذَاهَا
 بِكُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَّا نَوَاهَا
 وَأَهَا مِنْ تَفَرُّقِنَا، وَأَهَا
 وَمَنْ شَهَدَ الْجِمَارَ، وَمَنْ رَمَاهَا
 وَزَمَزَمَ وَالْمَقَامَ وَمَنْ سَقَاهَا
 تَكُونِيهَا، فَأَنْتِ إِذَا مُنَاهَا
 تَبَعَّمُ، وَهِيَ نَاشِدَةٌ طَلَاهَا
 فَقُلْتُ أَخَا الْقَرِينَةِ أَمْ تُرَاهَا؟
 ضَمَمْتُ قُرُونَهَا وَلَثَمْتُ فَاهَا (٣)

سلوت المعالي إن سلوتك

حَلَفْتُ بِأَعْلَامِ الْمُحْصَبِ مِنْ مِنِّي،
 وَكُلِّ بُجَاوِيٍّ يَجْرُ زَمَامَهُ،
 وَتَرْجِيحِ أَصْوَاتِ الْحَجَّاجِ وَقَدْ بَدَا
 وَرَوْعَةِ يَوْمِ النَّحْرِ، وَالْهَدْيِ حَائِرٌ،
 وَمَا ضَمَّ ذَاكَ الْقَاعُ وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ
 إِذَا مَا تَرَخَتْ فِي أَرْمَتِهَا النَّجْبُ (٤)
 وَقُورُ النَّوَاحِي تَسْتَبِدُّ بِهِ الْحُجْبُ
 وَكُلِّ دَمٍ أَوْدَى بِجُمَّتِهِ الرَّكْبُ



سَوَاءٌ تَدَانِي الْبُعْدُ أَوْ بَعْدَ الْقُرْبِ
 وَنَارُ غَرَامٍ بَيْنَ جَنَبِيٍّ لَا تَخْبُو^(٥)
 وَطَرْفُ، إِذَا سَكَنَتْهُ نَفَرَ الْقَلْبُ^(٦)
 عَلَى النَّاسِ قَالُوا: هَكَذَا يَفْعَلُ الْحَبُّ
 وَيُزِمُّضِي الْعَدْلُ الْمُورِّقُ وَالْعَتَبُ^(٧)
 وَأَصْفِيكَ مُحَضَّ الْوُدِّ مَا عَظَمَ الْخَطْبُ
 صَمْتُ، فَلَا جِدُّ لَدَيَّ وَلَا لِعَبُّ
 بَمِثْلَاءٍ يَلْطَى فِي أَبَاطِحِهَا التُّرْبُ^(٨)
 بِهَا الرِّيحُ مُخْضَرًّا كَمَا نُشِرَ الْعَصْبُ^(٩)
 تَهَاوَى بِهِمْ قُودُ السَّوَالِفِ أَوْ قَبُّ^(١٠)
 جَمِيعاً وَفِي غُضَنِ الْهُوَى وَرَقُّ رَطْبُ
 فَأَنْشُرَ مَا تَطْوِي الرِّسَائِلُ وَالْكَتُبُ
 وَمَا أَنَا إِلَّا مُعْرَمٌ بِالْعُلَى صَبُّ

لَقَدْ جَلَّ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَنْ قَلْبِي،
 وَلِي دَمْعٌ عَيْنٍ لَا يُرْنُقُ سَاعَةً،
 وَقَلْبُ يُمُورُ الطَّرْفُ إِنْ قَرَّ فِي الْحِشَاءِ،
 وَجِسْمٌ، إِذَا جَرَّدَتْهُ مِنْ قَبِيصِهِ
 فَمَا لِي عَلَى مَا بِي أَعْتَفُ فِي الْهُوَى،
 عَلَى حِينِ أُعْطِيكَ الْوَفَاءَ مُصَرَّحاً،
 وَكُنْتُ، إِذَا فَارَقْتُ دَارَكَ سَاعَةً،
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً
 تَطَّرَقَهَا مَاءُ الْعَمَامِ وَدَرَّجَتْ
 وَهَلْ أَذْعَرَنَ قَلْبَ الظَّلَامِ بِفِثْيَةٍ
 وَهَلْ أَرِدَنَ مَاءً وَرَدْنَا بِمِثْلِهِ
 وَهَلْ لِي بَدَارٍ أَنْتَ فِيهَا إِقَامَةٌ
 سَلَوْتُ الْمَعَالِي إِنْ سَلَوْتُكَ سَاعَةً،

هواي يمان وركبي معرق

تُعَادُ كَمَا عِيدَ السَّلِيمِ الْمُورِّقُ
 كَأَنَّكَ فِي الْحَيِّ الْوَلُودُ الْمُطَّرِّقُ^(١١)
 فُوَادِيٍّ مَا سُورُ وَدَمْعِي مُطَلَّقُ
 بِإِنْسَانٍ عَيْنٍ فِي صَرَى الدَّمْعِ يَغْرَقُ^(١٢)
 وَرَكْبِي مُنْفَادُ الْقَرِيبَةِ مُعْرَقُ
 وَآهًا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا

أَمِنْ ذِكْرِ دَارِ الْمَصَلِّي إِلَى مَنِي،
 حَنِيناً إِلَيْهَا وَالتَّوَاءَ مِنَ الْجَوَى،
 اللَّهُ، إِنِّي إِنْ مَرَرْتُ بِأَرْضِهَا
 أَكْرَرْتُ إِلَيْهَا الطَّرْفَ ثُمَّ أَرُدُّهُ،
 هَوَايَ يَمَانَ كَيْفَ، لَا كَيْفَ نَلْتَقِي،
 فَوَاهَاً مِنَ الزَّبْعِ الَّذِي غَيَّرَ الْبَلَى؛

أَصُونُ تُرَابَ الْأَرْضِ كَأَنُورًا حُلُوهُهَا، وَأَحْذَرُ مِنْ مَرِيٍّ عَلَيْهَا وَأُشْفِقُ
وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي لِلهَوَى غَيْرَ أَنِّي إِذَا الرَّكْبُ مَرَّوَا بِي عَلَى الدَّارِ أَشْهَقُ

أنة الشاكي وتنفس المكروب

لَا وَالَّذِي قَصَدَ الْحَجِيجُ لَبَيْتِهِ، مَا بَيْنَ نَاءِ نَازِحٍ وَقَرِيبِ
وَالْحَجْرِ وَالْحَجَرِ الْمُقْبِلِ تَلْتَقِي فِيهِ الشِّفَاءُ، وَرُكْنِهِ الْمُحْجُوبِ
لَا كَانَ مَوْضِعَكَ الَّذِي مُلْكْتُهُ بَيْنَ الْأَضَالِعِ بَعْدَ ذَا الْحَبِيبِ
إِنِّي وَجَدْتُ لَذَاذَةَ لَكَ فِي الْحِشَا لَيْسَتْ لِمَا كُؤَلٌ وَلَا مَشْرُوبِ
لِي أَنَةُ الشَّاكِي إِذَا بَعُدَ الْمَدَى مَا بَيْنَنَا وَتَنَفَّسُ الْمَكْرُوبِ

ذكرى

تَذَكَّرْتُ، بَيْنَ الْمَازَمِينَ إِلَى مَنِيٍّ، غَزَالًا رَمَى قَلْبِي وَرَاحَ سَلِيمًا^(١٣)
لَيْنُ كُنْتُ أَسْتَحْلِي مَوَاقِعَ نَبِيلِهِ، فَاإِنِّي الْأَقْيَ غِبَّهِنَّ أَلِيمًا
أَصَابَ حَرَامًا يَنْشُدُ الْأَجَرَ غُدُوَّةً، فَمَا عَادَ مَا جُورًا وَعَادَ أَثِيمًا
فَلَوْ كَانَ قَلْبِي بَارِتًا مَا أَلِمْتُهُ، وَلَكِنَّ أَسْقَامًا أَصَبَنَ سَقِيمًا
إِذَا بَلَّ مِنْ دَاءٍ أَعَادَتْ لَهُ الْمَهَا نُكَاسًا، إِذَا مَا عَادَ عَادَ مُقِيمًا
يَظُنُّونِي اسْتَطْرَفْتُ دَاءً مِنَ الْهَوَى، وَهَيَّاتُ، دَاءُ الْحَبِّ كَانَ قَدِيمًا
قَنَصْتُ بِجَمْعٍ شَادِنًا فَرَجْمْتُهُ، وَأَخْفَقَ قَنَاصٌ يَكُونُ رَحِيمًا^(١٤)
أَأْغَدُو مُهِينًا بِالْحَبَائِلِ سَاعَةً، غَزَالًا عَلَى قَلْبِي، الْعَدَاةُ، كَرِيمًا
تَرَاءَتْ لَنَا بِالْحَيْفِ نَفْحُ لَطِيمَةٍ، سَرَتْ عَنْكَ إِلَّا عَبَقَةً وَنَسِيمًا^(١٥)



وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْمَاطِلَاتِ عَشِيَّةً، ذَوَاتِ يَسَارٍ مَا قَضَيْنَ غَرِيماً
فَلَا يُبْعَدُ اللَّهُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا مِنْ الْعَهْدِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَمِيماً

الهوامش :

- (١) الأخشبان: هما جبلا مكة أبو قبيس والأحمر.
- (٢) رفعوا: أصدوا. وجاها: حفاها.
- (٣) حَرَامٌ: مُحَرَّمٌ.
- (٤) البجاوي: نوع من الإبل ينسب إلى بجاوة وهي أرض النوبة.
- (٥) يرفق: يضعف، يتوقف.
- (٦) يمور: يجري. الطرف: العين.
- (٧) يرمضني: يحرقني.
- (٨) الميثاء: الأرض السهلة. يلطى: يلزق.
- (٩) العصب: ضرب من البرود، واللبلاب.
- (١٠) القود، الواحد أقود: الدليل المتقاد. وقوله السوائف: أراد الخيل ذات السوائف. وسالفة الفرس: ما تقدّم من عنقه. القب: الضوامر البطون.
- (١١) المطرق، من طرقت الحامل بولدها: نشب في بطنها ولم يسهل خروجه.
- (١٢) الصرى: الماء إذا طال مكثه.
- (١٣) المأزمين: مضيق بين مكة ومنى.
- (١٤) جمع: اسم للمزدلفة.
- (١٥) اللطيمة: وعاء المسك، أو سوقه.